مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:07 العدد 01 جانفي (2023) ص 130 - 149

الحجاج العرفانيّ في سيرة محمّد الباردي الذاتيّة

The argumentation cognitive in Muhammad Al-Bardi's autobiography

محمّد الناصر كحّولي *

قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة،

جامعة القصيم، المملكة العربيّة السعوديّة.

Knacirov1@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
31/ 12 /2021
تاريخ القبول:
18/ 05 /2022

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الحجاج / العرفانيّة /
- ✓ المحيط العرفانيّ /
- ✓ الإظهار الاستدلاليّ /
- ✓ الاستيعاب الاستدلاليّ.

الملخص:

يروم هذا البحث التأسيس للحجاج العرفانيّ، بوصفه نظريّة حادثة، تهدف إلى دراسة كيفيّة معالجة الذهن للخطاب إنتاجا واستيعابا، وبيان مسار عمليّة الاقتناع. وهي العمليّة التي تؤدّي إلى تغيير محيط السامع العرفانيّ، وما قد يترتّب عليها من تعديل سلوكه.

ويطمح البحث في نتائجه إلى بناء نظريّة جديدة في الحجاج تقوم على مرحلتيْن: مرحلة الإظهار الاستدلاليّ، وهي المرحلة التي يُنجزها المتكلّم ويُظهر فيها مجموعة من الوقائع والافتراضات قصد تغيير المحيط العرفانيّ لدى السامع، ومرحلة الفهم والاستيعاب، وهي المرحلة التي يُنجزها السامع، ليصل في نهايتها إلى ضرب من التغيير في محيطه العرفانيّ.

Article info

Received
31/12/2021

Abstract :

This research aims to establish argumentation cognitive, as a new theory, which aims to study how the mind processes discourse

* المؤلف المرسل

production and assimilation, and to indicate the course of the persuasion process. It is the process that leads to changing the Cognitive environment of the audience, and the modification of his behavior.

In its results, the research aspires to build a new theory in argumentation on two stages: the stage of inferential manifestation, which is the stage that the speaker accomplishes and shows a set of facts and assumptions in order to change the Cognitive environment of the listener, and the stage of understanding and comprehension, which is the stage accomplished by the the auditor, to reach at the end of it A kind of change in his Cognitive environment.

Accepted
18/05/2022

Keywords:
- ✓ *Argumentation / Cognitive /*
- ✓ *Cognitive environment/*
- ✓ *Inferential manifestation /*
- ✓ *Inferential comprehension.:*

. مقدمة:

تربط بين نظريّات الحجاج جوامع مشتركة عدّة، لعلّ أبرزها البحث عمّا به يتحقّق الإقناع والتأثير. وكانت نظريّة الحجاج البلاغيّ أو الخطابيّ عند أرسطو أشمل النظريّات وأعمّها لاستنادها إلى المكوّنات الرئيسة الثلاثة: المتكلّم ممثّلا في الإيتوس، أو المكوّن الانفعاليّ، والخطاب ممثّلا في اللوغوس أو المكوّن المنطقيّ، والسامع ممثّلا في الباتوس أو المكوّن العاطفيّ[1].

ولئن ركّزت أغلب النظريّات الأخرى على الخطاب، فإنّها اختلفت طرائق قددا في تعيين المظهر الخِطابيّ الذي يصنع الإقناع. فالحجاج البلاغيّ في صورته الجديدة مع بيرلمان وتيتيكاه ركّز على التقنيّات الواردة في الخطاب، فهي التي تؤدّي الأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم[2]. واتّجه الحجاج الخِطابيّ إلى تبئير صورة الذات، وبيان دورها في الإقناع، سواء تلك الذات السابقة للخطاب (Ethos prédiscursif) أو الذات الخطابيّة (Ethos discursif)، والتمييز في الخطاب بين البعد الحجاجيّ والمقصد الحجاجيّ[3]. بينما انصرف الحجاج التداوليّ إلى ما في الخطاب من أعمال لغويّة منزّلة في سياق الاستعمال[4]. وارتكز الحجاج المنطقيّ على دراسة العمليّات المنطقيّة والخطابيّة التي تساهم في بناء الخطاب منطقيّا[5]. وأمّا الحجاج اللغويّ فقدّم الوظيفة الحجاجيّة في اللغة على الوظيفة الإخباريّة، ودمج بين المكوّنيْن الدلاليّ والتداوليّ، وجعل الحجاج متجذّرا في سجّلات اللغة[6].

ورغم حرص نظريات الحجاج على استثمار مختلف مكوّنات التواصل وآليّاته وبيان دورها في صناعة الإقناع والتأثير، وسعي بعض تلك النظريّات اللاحقة إلى تثوير مقولات النظريّات السابقة لها وتطويرها، فإنّها ظلت سجينة الأبعاد الثلاثيّة في اللغة: التركيبيّ والدلاليّ والتداوليّ. فأغفلت بذلك البعد الرابع وهو البعد العرفانيّ. وتبرز في هذا البعد مكوّنات جديدة وآليّات مختلفة لها دور مغاير في صناعة الإقناع والتأثير. وهي تتّصل بكيفيّة معالجة الذهن للغة بوصفها نشاطا عرفانيّا مستقلّا بذاته، وذا علاقة تفاعل مع الملكات العرفانيّة الأخرى كالإدراك والفهم والتذكّر والتصوّر، وكذلك معالجة الذهن للحمولة الإخباريّة في كلّ خطاب، حيث يمرّ الذهن بثلاث مراحل: مرحلة اللواقط (Transducers)، ومرحلة الأنظمة الدخل (Input)، ومرحلة الأنظمة المركزيّة (Central systems)[7].

ومن تلك المكوّنات "المحيط العرفانيّ"[8] (Environnement cognitif)[9]. وهو يشمل كلّ ما هو ظاهر للفرد، ويشمل الظاهرُ الوقائعَ وكلَّ الافتراضات (Hypothèses)[10]. ويتميّز بالدرجيّة. ويُصدر المتكلّم حافزا أو منبّها للسامع، قصد تغيير

المحيط العرفانيّ المتبادل بينهما (Environnement cognitif mutuel). وفي هذا المستوى تحديدا يُصنع الإقناع وينشأ التأثير، فينمو الحجاج ويتبرعم.

ويزداد أمر المحيط العرفانيّ المتبادل أهمّيّة متى ورد في الخطاب السرديّ، وتحددا السيرة الذاتيّة. فهي تواصل أدبيّ، ومحيط عرفانيّ في حالة بناء مستمرّ. وتقوم في جوهرها على نقل محيط عرفانيّ من الكاتب إلى القارئ. ولن ينقل الكاتب إلّا ما بدا له ظاهرا من الوقائع والافتراضات. فهو محور محيطه العرفانيّ. ويمثّل معها المرجعيّات العرفانيّة التي يتحدّد في ضوئها تمثيله للعالم. وسيتوقّع من القارئ أن يُحدث تغييرا في محيطه العرفانيّ. ولمّا كانت السيرة الذاتيّة خطابا مكتوبا فإنّ مقصدها التواصليّ المتمثّل في تغيير المحيط العرفانيّ المتبادل سيتحقّق في المستوى الذهنيّ أساسا، ذلك أنّ الكاتب والقارئ لا يجمعهما مقام تلفّظ واحد أو محيط فيزيائيّ معيّن.

ويتنزّل مقصد الكاتب إلى تغيير محيط القارئ العرفانيّ في صميم العمل الحجاجيّ. وهو يحاجّ اعتمادا على مدركاته. وأمّا القارئ فيخضع لمفعول مدركات الكاتب. فيغيّر محيطه العرفانيّ. وقد اصطلحنا على هذا الضرب من الحجاج بالحجاج العرفانيّ. وهو يتجاوز النموذج الإقناعيّ العرفانيّ الذي اقترحه فريستاد ورايت[11]، لاقتصار ذلك النموذج على دراسة أساليب وكلاء البيع لإقناع المستهلك. فما التقنيّات التي يوظّفها كاتب السيرة الذاتيّة لتغيير المحيط العرفانيّ لدى القارئ؟ وكيف تشتغل حجاجيّا؟ وفيم يتجلّى التغيير الذي يطرأ على المحيط العرفانيّ لدى القارئ؟ وما وجوه الحجاج العرفانيّ فيه؟

وقد آثرنا للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، الاشتغال بسيرة محمّد الباردي الذاتيّة. ويردّ اختيارنا هذا إلى ثلاثة عوامل: يتمثّل أوّلها في تواتر فعل الإدراك "أدرك" تواترا مستمرّا في الكتابيْن. فقد قدّمه الكاتب على الأفعال الأخرى التي من جدوله للدلالة على أغلب العمليات العرفانيّة سواء الحسّيّة أو العقليّة. ويتّصل العامل الثاني بتقديرنا أنّ سيرة محمّد الباردي من أكثر السير الذاتيّة اكتمالا نظرا إلى كونه قد كتبها في مرحلة متأخّرة من قائم حياته. وأمّا العامل الثالث فيتعلّق بهيمنة السرد المرجعيّ في الخطاب السيرذاتيّ على السرد التخييليّ، وفي السرد المرجعيّ تتضخّم الوظيفة التداوليّة، بينما تتراجع في السرد التخييليّ، بل قد "يخلو منها تماما"[12]. فكيف أظهر محمّد الباردي سيرته الذاتيّة إظهارا استدلاليّا؟

2. الإظهار الاستدلاليّ:

إنّ الإظهار هو أن تُري شيئا مّا لشخص مّا. فالمتكلّم يُقدّم للسامع افتراضا أو أكثر، ويقصد إظهار شيء مّا في تلك الافتراضات، أي إنّه يجعل طبقة من المعلومات الأساسيّة ظاهرة. وقد قصد محمّد الباردي في سيرته الذاتيّة إظهار شهادته على ذاته وعصره، ففيم تتجلّى الشهادة؟ وما التقنيّات التي أجراها الراوي لإيصال شهادته إلى المشهود له، وتحقيق التواصل معه؟

1.2 الإظهار الاستدلاليّ عملا تواصليّا:

ميّز سبيربر وويلسون بين شكليْن من أشكال التواصل: التواصل الإظهاريّ الاستدلاليّ (Communication ostensive-inférentielle)[13] والتواصل بالتشفير. وعرّفا التواصل الإظهاريّ الاستدلاليّ بأنّه إصدار منبّه (Stimulus) يجعل مجموعة من الافتراضات ظاهرة أو أظهر بالنسبة إلى السامع. ورأى الباحثان أنّ أغلب التواصل البشريّ يكون قصديّا لسببيْن قويّيْن: يتمثّل أوّلهما في أنّ المتكلّم حين يُصدر دليلا مباشرا على قصده الإخباريّ يستطيع أن يوصل سلسلة من المعلومات أطول ممّا يمكن توصيله بواسطة إصدار دليل مباشر على المعلومات نفسها. وأمّا السبب الثانيّ فيتّصل بغايات التواصل. فالمتكلّم يتواصل مع السامع كي يعدّل محيطه العرفانيّ الذي يشاركه فيه أو يوسّعه.

وينجح المتكلّم في مهمّته متى صارت الافتراضات التي قصد إظهارها للسامع ظاهرة. وإذا رفض السامع التسليم بصدق تلك الافتراضات أو احتمال صدقها فإنّ المتكلّم يكون قد أخفق في قصده الإخباريّ. وحين يكون المتكلّم في موقع السلطة بالنسبة إلى السامع فإنّه يفترض أنّ ما يقوله أو يوصله يصبح ظاهرا تبادليّا ظهورا تلقائيّا. وحين لا يتمتّع المتكلّم بهذا النوع من السلطة، وهو يريد تأسيس محيط عرفانيّ متبادل مع السامع، فعليه أن يكيّف مقاصده الإخباريّة لتناسب مصداقيّته[14].

وتعدّ سيرة محمّد الباردي الذاتيّة إظهارا استدلاليّا تواصليّا، طرفاه الكاتب من جهة كونه متواصلا أو متكلّما، والقارئ من جهة كونه متلقّيا أو سامعا. وقد انصرف الكاتب إلى إصدار منبّهات إظهاريّة باستمرار جعلت جميع الافتراضات ظاهرة بصرف النظر عن درجة الصدق فيها[15]. وتعلّقت الافتراضات بتجربة الكاتب في الحياة منذ طفولته الأولى إلى مرحلة متقدّمة من شيخوخته. ويهمّنا منها في هذا المستوى القصد الإخباريّ بالتحوّلات التي شهدتها مختلف أحوال الكاتب الذاتيّة سواء ذهنيّا أو نفسيّا، والموضوعيّة سواء اجتماعيّا أو ماديّا.

ففي مستوى الأحوال الذهنيّة مرّ الكاتب بمرحلتيْن: مرحلة انعدام الوعيّ والعجز عن الإدراك ومرحلة مرحلة الوعي والقدرة على الإدراك. ونشأ الراوي، في مستوى الأحوال النفسيّة، خجولا ومنطويا على ذاته بسبب تأثّره بموت أخيه. ولكنّه كان ممتلئا بالمشاعر والأحاسيس. ثم انفجر ذلك الكون من العواطف والمشاعر في ثلاثة مسارات[16]: العائلة والمرأة والمكان. وأمّا في مستوى الأحوال الاجتماعيّة والماديّة فقد نشأ الراوي في عائلة قليلة العدد محدودة الموارد الماليّة. فنما الإحساس لديه بالحرمان مبكّرا. وقال في ذلك: "لم أكن وحدي فقيرا... ولعلّي كنت أكثر هؤلاء الصبية إحساسا بوضعيّتي الاجتماعيّة" (2012، ص 18). وقد لازمه هذا الإحساس إلى أن باشر مهنة التعليم.

لقد أصبحت الافتراضات التي قصد الكاتب إظهارها للقارئ ظاهرة تبادليّا. والافتراض الأظهر هو هذه حياتي. وإذا كان المتكلّم في التواصل المباشر بوسعه أن يعرف رفض السامع للمعلومات التي تمّ توصيلها أو قبولها، فإنّه في الخطاب السرديّ عموما والسيرة الذاتيّة خصوصا، مطالب بتكييف مقاصده الإخباريّة مع مصداقيّته. فالكاتب يعتقد أنّه من الظاهر تبادليّا أنّ القارئ يثق في ما يرويه له وينقله عن تجربته في الحياة. فتكوّن بذلك محيط عرفانيّ متبادل مع القارئ. ويمكن في هذا المستوى الحكم بأنّ محمّد الباردي قد نجح في قصده الإخباريّ[17]. ففيم يتمثّل قصده الإقناعيّ؟

2.2 الإظهار الاستدلاليّ عملا إقناعيّا:

قال سبيربر وويلسون: "سنحاول أن نثبت أنّك حين تتواصل، فإنّك تقصد أن تغيّر المحيط العرفانيّ لمستمعيك. لكنّك بالطبع تتوقّع من عمليّاتهم الفكريّة أن تتأثّر لذلك"[18]. فللمتواصل حسب الباحثيْن مقصد محدّد يتمثّل في تغيير محيط السامع العرفانيّ. وقد حصر محمّد الباردي مقصده في سيرته الذاتيّة في حمل حفيده والقارئ على عشق الحياة والرغبة فيها والإصرار عليها، وله من منظور الحجاج العرفانيّ غايتان مترابطتان: تحقيق تأثير سياقيّ في القارئ، وتقليص جهد المعالجة إلى الحدّ الأدنى. وقد عمد لتحقيق هاتيْن الغايتيْن إلى توظيف تقنيّة الإظهار. فكيف يشتغل الإظهار حجاجيّا؟

أنجز الكاتب سلسلة متّصلة من الافتراضات في سيرته الذاتيّة. وتختلف المعلومات التي قصد إظهارها من افتراض إلى آخر. وسنسوق نماذج من ثلاثة أنواع من الافتراضات:

* الافتراضات الذاتيّة:

	الافتراض		الافتراض
1	أصبحت قارئا نهما. أقرأ كلّ نصّ روائيّ أعثر عليه (مجمد الباردي، 2012، ص 158).	5	وأدركت أنّ تحمّل المسؤوليّة لا يتحمّل التراجع في اللحظات الأخيرة (مجمد الباردي، 2012، ص 212).
2	في طفولتي أحسست أنّ جدّي يجرح كبريائي، عندما أراه تجرّه زوجته، وهي تمضي به إلى السوق (مجمد الباردي، 2010، ص 39).	6	وأدرك أنّ حياتي لم تكن بتلك التعاسة التي يمكن أن يتخيّلها الإنسان (مجمد الباردي، 2010، ص 254).
3	لا أعتقد أنّ الشيخ علي وعفاريته الموهومة كان قادرا على التكهّن بها (مجمد الباردي، 2012، ص 186).	7	لا أفكّر في الموت. أعتبره قدرا محتّما، يمكن أن يأتي في أيّ وقت شاء، فأنا مستعدّ له. لكنّي تعلّمت أن أعشق الحياة رغم بؤسها أحيانا (مجمد الباردي، 2012، ص 324).
4	لقد علّمتني التجربة أن أكون مقاوما. سأقاوم دائما ضعفي، وسأخرج من الكبوات التي أجد نفسي فيها (مجمد الباردي، 2012، ص 40).		

أظهر محمّد الباردي في هذه الافتراضات الذاتيّة، معلومات محورها الأنا[19]. ويمكن توضيحها في الترسيمة الآتية:

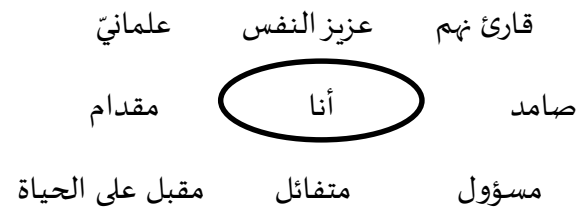

إنّ المعلومات التي قصد الكاتب إظهارها ترسم صورة ذاته (Image de soi)، وتسند إليه أعمالا وأحوالا معيّنة. ومدار تلك الصورة والأعمال والأحوال على الأفكار والمبادئ والقيم التي آمن بها وصدّق. وتشكّل تلك الأفكار والمبادئ والقيم بنية الكاتب الذهنيّة وبنيته الوجدانيّة، وتوجّه سلوكه وجهة مّا. وهي تمثّل جزءا من محيطه العرفانيّ.

* الافتراضات الاجتماعيّة:

	الافتراض		الافتراض
1	بسرعة مذهلة أسقط الناس صفة الحوذيّ واستبدلوها بالشيخ (محمد الباردي، 2012، ص 178).	4	عرفت أناسا كانوا عندي أولياء صالحين، وعرفت آخرين كانوا عندي شياطين كأنّهم ليسوا من أهل هذه الأرض (محمد الباردي، 2012، ص 316).
2	كان قاموس شتائمها ثريّا ومتنوّعا إلى درجة أنّي عندما كبرت كنت أتعجّب من أين تأتي زوجة جدّي بكلّ هذه القذاعات (محمد الباردي، 2012، ص 107).	5	وسأكتشف في النهاية أن لا شيء يدوم إن لم يتحكّم فيه منطق المصلحة (محمد الباردي، 2012، ص 245).
3	لأنّ الحيّ لا يملكه إلّا من ملك أسراره (محمد الباردي، 2012، ص 199).		

أظهر الكاتب في هذه الافتراضات الاجتماعيّة، طبقة من المعلومات حول محيطه الاجتماعيّ. ويمكن تمثيلها على النحو الآتي:

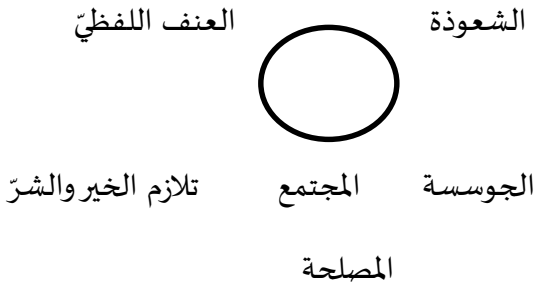

تُظهر هذه المعلومات حقيقة المحيط الاجتماعيّ التي عاش فيه الكاتب. وهو محيط يسلّم بمقالات المشعوذين. فتراجع الوعي فيه إلى الدرجة الصفر. وشهدت العلاقات بين أفراده توترا مستمرّا بلغ ذروته في الملاسنات العنيفة أو المبارزات الكلاميّة التي ما تكاد تخبو هنا حتى تطفو من جديد هناك. وقد اختار بعض أفراده سبيل الجوسسة لإحكام السيطرة على الآخرين. ولمّا كان الخير والشرّ أصيليْن في بعض الناس ودخيليْن في البعض الآخر احتكم كلّ شخص إلى سوء النيّة وإبليسها في علاقاته بالآخرين. وغلّب منطق المصلحة في مختلف وجوه معاملاته معهم. فتجده متربّصا متحفّزا حيثما توجد مصلحته.

* الافتراضات السياسيّة:

الافتراض	الافتراض
سأدرك أنّ ليس كلّ الذين يتحدّثون عن الوطن يخدمون الوطن (محمد الباردي، 2008، ص 46).	وأنا أدرك الآن أنّ السياسة في بلدي تقتل ملكة الإبداع وتحوّل الإنسان إلى كائن ماكر (محمد الباردي، 2010، ص 161).
لا أحد كان يثق في كلام العمدة الذي كان منتشيا. كان يقول ويعلم أصحابه أنّه كان يكذب (محمد الباردي، 2010، ص 82).	ولكنّ العمل النقابيّ في هذا البلد كان وجها من وجوه السياسة (محمد الباردي، 2012، ص 214).
يبدو مركز الولاية حيث تصدر القرارات دائما بناية غامضة (محمد الباردي، 2012، ص 153).	

أظهر الكاتب في الافتراضات السياسيّة طبقة من المعلومات تبئّر محيطه السياسيّ الذي نشأ فيه. ويمكن توضيح ذلك في الترسيمة الآتية:

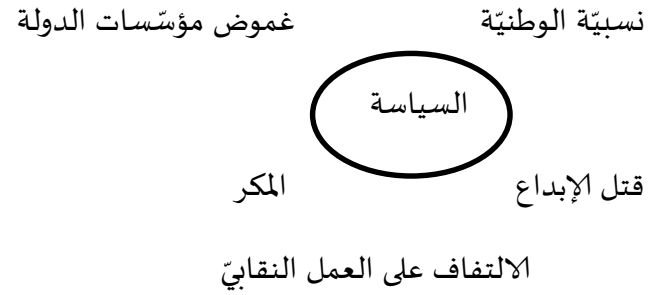

أظهر الكاتب من محيطه السياسيّ ثلاث سمات أساسيّة: تتّصل أولاها بالإنسان. فالوطنيّة عند بعض الناس مجرّد حقنة لتخدير الآخرين وحملهم على التسليم بما يطلب إليهم. وتتّصل السمة الثانية بمؤسّسات الدولة. فهي محوطة بالسرّيّة التامّة. وكلّ ما فيها أمور تدبّر بليل. وأمّا السمة الثالثة فتتّصل بمفعول السياسة. فهي توجّه الإبداع وجهة خادمة لها. فتتركه خاسئا وهو حسير. وتفرغ الإنسان من إنسانيّته، وتملؤه ذئبيّة. فيرى غيره مشروع فريسة محتملة. وتلتفّ على العمل النقابيّ حقّا وممارسة. فتتركه خاويا على عروشه.

إنّ الكاتب هو الذي أدرك تلك الجوانب من محيطه على ذلك النحو. فهو المرجعيّة العرفانيّة التي تنظّم المدركات وتحدّد الأشياء من حوله. وقد غيّرت كلّ تلك المدركات تمثيله للعالم. وهو يقصد بإظهارها في سيرته الذاتيّة وفي شهادته أن يكشف للقارئ ظواهر أخرى، ويغير محيطه العرفانيّ.

ويشتغل الإظهار الاستدلاليّ حجاجيّا في جميع الافتراضات السابقة بطريقتيْن: تستند أولاهما إلى مفهوم الحضور. فالراوي يُحضر في الواجهة الأماميّة من وعي القارئ الافتراض الأنسب للمنبّه الإظهاريّ الذي أصدره. وتتمثّل الطريقة الثانية في الضغط على ذهن القارئ. ويتحقّق الضغط عن طريق المنبّهات الإظهاريّة. وأمّا المفعول الحجاجيّ للإظهار الاستدلاليّ فيتمثّل في التوجيه

والاستدراج والتوريط. فالمتكلّم يوجّه استدلاليّا القارئ نحو وجهة معيّنة، ويستدرجه إليها. فيجد القارئ نفسه قد تورّط في ما أراد أن يُظهره له المتكلّم من افتراضات، فيبدأ مفعول تغيير المحيطه العرفانيّ على أيّ نحو من الأنحاء.

وإذا كان الكاتب قد نجح في جعل افتراضاته ظاهرة تبادليّا فكيف تلقّاها القارئ؟ وما التقنيّات التي أجراها في عمليّة الاستيعاب؟ وإذا كان الحجاج العرفانيّ اشتغل في مستوى المتكلّم عن طريق تقنية الإظهار، فكيف يشتغل في مستوى القارئ؟ وما التقنيّات الناهضة بعمليّة تغيير المحيط العرفانيّ لديه؟

3. الاستيعاب الاستدلاليّ:

يوظّف المتلقّي، من وجهة نظر نظريّة المناسبة، كفاءته العرفانيّة الحسّيّة وكفاءته العرفانيّة التصوّريّة (Capacité cognitive conceptuelle) لإدراك الوقائع الظاهرة حوله. ثم يُنجز عمليّة استيعاب استدلاليّ (Compréhension inférentielle). ولا يمكنه معرفة مقاصد المتكلّم سواء عن طريق فكّ الشفرة أو عن طريق الاستنباط، وإنّما يمكنه أن يبني افتراضا استنادا إلى البيّنة أو الدليل الذي يزوّده به المتكلّم. ويستمدّ الافتراض قوّته من درجة الصدق فيه. فالافتراض الذي نثق فيه هو الافتراض الأكثر احتمالا للصدق. وتعتمد قوّة الافتراض الابتدائيّة على كيفيّة اكتسابه. فالافتراضات المتأتّية من تجربة إدراكيّة حسّيّة واضحة تكون قويّة جدّا، والافتراضات المستحضرة من الذاكرة تأتي على درجة معيّنة من القوّة، والافتراضات المبنيّة على أساس قبول كلام شخص مّا تكون قوّتها متناسبة مع ثقة الفرد بذلك المتكلّم. وتعتمد قوّة الافتراضات المتوصّل إليها عن طريق الاستنباط على قوّة المقدّمات المنطقيّة التي استُنبطت منها. ويزداد الافتراض قوّة متى ساعد في معالجة معلومات جديدة، وتنقص قوّته متى زاد في صعوبة معالجة معلومات جديدة. والافتراض الأسهل منالا هو الافتراض الأسهل تذكّرا. ولا يحسّن الإنسان تمثيله للعالم بزيادة افتراضات جديدة، وإنّما برفع درجة ثقته بتلك الافتراضات أو خفضها[20]. ويمثّل الفهم النشاط الذهنيّ الأوّل في عمليّة الاستيعاب الاستدلاليّ.

1.3 الاستيعاب الاستدلاليّ فهما:

يمرّ الذهن أثناء عمليّة الاستيعاب الاستدلاليّ، لتحقيق الفهم والتمثّل، بمرحلتيْن: اللزوم السياقيّ والتأثير السياقيّ.

1.1.3 **اللزوم السياقيّ:**

قسّم سبيربر وويلسون مجموعة الأطروحات الأوّليّة الموضوعة في ذاكرة الجهاز الاستنباطيّ مجموعتين فرعيّتين، هما ج و س. ونظرا إلى ج بوصفها معلومات جديدة، وس بوصفها معلومات قديمة. واصطلحا على الاستنباط المبني على أساس اتّحاد ج و س بوصفهما مقدّمتين منطقيّتين بتسييق (Contextualisation) ج في السياق س[21].

ويولّد تسييق ج في س نتائج لا يمكن استنتاجها من أيّ من ج أو س لوحدها. واصطلحا على هذه النتائج باللزوم السياقيّ (Implication contextuelle). ويتولّد عليه تأثير مّا.

2.1.3 **التأثير السياقيّ:**

يترتّب على النتائج المتوصّل إليها بعد اتّحاد المعلومات الجديدة ج والمعلومات القديمة س أو تسييق ج في س تأثير سياقيّ أو نتائج مقاميّة (Effet contextuel). ولهذا التأثير السياقيّ عدّة أنماط. فقد تحمل النتيجة بيانات وأدلّة جديدة فتقوي الافتراضات السابقة عند السامع، أو تحقّق نتيجة متوقّعة. وقد تحمل بيانات وأدلّة مناقضة لما عند السامع من افتراضات

سابقة فتحذفها. وقد تقتصر النتيجة على تعديل الافتراضات السابقة. فالتأثير السياقيّ يحصل حين يحلّ الافتراض الجديد محلّ افتراض موجود سابقا في السياق. ويؤدّي كلّ ذلك إلى الفهم وحصول تحسّن مهمّ في تمثيل الفرد للعالم. ومتى كانت النتيجة مجرّد تكرار للمعلومات القديمة أو لا صلة لها بها فإنّها لا تعدّل السياق ولا تحسّنه[22].

وهناك ثلاثة أنماط من الحالات التي قد يفتقر فيها الافتراض إلى التأثيرات السياقيّة، ويكون غير ذي صلة: قد يزوّدنا الافتراض في الحالة الأولى بمعلومات جديدة، ولكنّها لا ترتبط بأيّ معلومات موجودة في السياق. وقد تكون المعلومات الجديدة في الحالة الثانية موجودة سابقا في السياق ولا تؤثّر في قوّته. وأمّا في الحالة الثالثة فقد يتناقض الافتراض مع السياق ولا يقدر على قلبه[23]. فكيف تشتغل عمليّة الاستيعاب الاستدلاليّ في سيرة محمّد الباردي الذاتيّة من حيث هي فهم؟

لا تخلو الإفادة من هذا التصوّر النظريّ في مقاربة سيرة محمّد الباردي الذاتيّة من عسر. فلا يمكن التحكّم الدقيق في السياق الذي سيكون في ذهن قارئ معيّن في لحظة معيّنة[24]. وعلى هذا الأساس سنتعامل مع القارئ على أنّه سامع كونيّ.

إنّ سيرة محمّد الباردي الذاتيّة سلسلة من الافتراضات تشمل مختلف وجوه تجربته في الحياة، وتكشف تصوّره للعالم وأشيائه، وقد أظهرها للقارئ. وسيحرص القارئ في مرحلة أولى على فهمها أثناء عمليّة الاستيعاب الاستدلاليّ. وسنستند إلى نماذج من تلك الافتراضات في المستويات الآتية: الذاتيّ والاجتماعيّ والسياسيّ. ودونك بعض الافتراضات من المستوى الأوّل:

*** الافتراضات الذاتيّة:**

	الافتراض (ج)	السياق (س)	اللزوم
1	أصبحت قارئا نهما. أقرأ كلّ نصّ روائيّ أعثر عليه (محمد الباردي، 2012، ص 158).	الكاتب نجح علميّا وثقافيّا	المطالعة إحدى سبل النجاح العلميّ والثقافيّ
2	في طفولتي أحسست أنّ جدّي يجرح كبريائي، عندما أراه تجرّه زوجته، وهي تمضي به إلى السوق (محمد الباردي، 2008، ص 39).	التألّم لرؤية الأقارب في وضع مهين	عزّة النفس تأبى القبول بهوان الأقارب
3	لا أعتقد أنّ الشيخ علي وعفاريته الموهومة كان قادرا على التكهّن بها (محمد الباردي، 2012، ص 18).	التنجيم بين الرفض والتسليم	ردّ مقالة المشعوذين
4	لقد علّمتني التجربة أن أكون مقاوما. سأقاوم دائما ضعفي، وسأخرج من الكبوات التي أجد نفسي فيها. (محمد الباردي، 2012، ص 40).	الإصرار على تجاوز الفشل.	الصمود سبيل النجاح في الحياة
5	وأدركت أنّ تحمّل المسؤوليّة لا يتحمّل التراجع في اللحظات الأخيرة (محمد الباردي، 2012، ص 212).	التراجع انهزام أمام الخصوم	الثبات على المبدإ في مواجهة الخصوم

6	وأدرك أنّ حياتي لم تكن بتلك التعاسة التي يمكن أن يتخيّلها الإنسان (محمد الباردي، 2010، ص 254).	الحياة نعيم وشقاء	الإحساس بنعيم الحياة رغم المحن
7	لا أفكّر في الموت. أعتبره قدرا محتّما، يمكن أن يأتي في أيّ وقت شاء، فأنا مستعدّ له. لكنّي تعلّمت أن أعشق الحياة رغم بؤسها أحيانا (محمد الباردي، 2012، ص 324).	مسألة الموت والحياة	الإقبال على الحياة وعدم الخوف من الموت.

إنّ الافتراضات الواردة في جدول الافتراضات الذاتيّة تمثّل معلومات جديدة (ج)، أو ما يُصطلح عليه بـ"الواجهة الأماميّة" (Avant-plan)[25] حسب لويس دي سوسير. ويشغّل القارئ جهازه الاستنباطيّ سواء عن طريق فكّ التشفير اللغويّ أو الذاكرة الموسوعيّة، فيصل إلى المعلومات القديمة (س)، أو "الواجهة الخلفيّة" (Arrière-plan). ثمّ يستنبط من اتّحاد المقدّمتيْن أو تسييق ج في س، نتائج ذات لزوم سياقيّ. ففي الافتراض الأوّل ينطلق القارئ من تصوّر قدّمه الكاتب عن نفسه حول شغفه بالمطالعة، خصوصا مطالعة الروايات. ثمّ يربط هذا الافتراض بمعلومة قديمة يستدعيها من ذاكرته الموسوعيّة. ومفادها أنّ الكاتب أو الراوي في سيرته الذاتيّة هو باحث وروائيّ. فيستنبط تلقائيّا لزوما سياقيّا مفاده أنّ المطالعة سبيل من سبل النجاح علميّا وثقافيّا.

ويمثّل الافتراض الذي قدّمه الكاتب، المقدّمة الأولى في بنية القياس المنطقيّ. ويمثّل السياق المقدّمة الثانية. وأمّا اللزوم فيمثّل النتيجة. ويمكن تخريج عمليّة الاستنباط التي أنجزها القارئ على النحو الآتي:

المقدّمة الأولى: أصبحت قارئا نهما. أقرأ كلّ نصّ روائيّ أعثر عليه.

المقدّمة الثانية: الكاتب نجح علميّا وثقافيّا.

النتيجة: المطالعة إحدى سبل النجاح العلميّ والثقافيّ.

ويواصل القارئ عمليّات الاستنباط من جميع الافتراضات المتعلّقة بالقيم والمبادئ التي يؤمن بها محمّد الباردي، وتصوّر تمثيله للعالم. فيصل إلى النتائج الواردة في الواد الأخير من الجدول المذكور أعلاه. ولن يقتصر القارئ على هذا الضرب من الافتراضات وإنّما سيقف على ضرب ثان يساعده في الوقوف على جانب ثان من تمثيل محمّد الباردي للعالم من حوله. وقد اخترنا نماذج معيّنة من هذا الضرب الثاني من الافتراضات الواردة في سيرة محمّد الباردي الذاتيّة.

*** الافتراضات الاجتماعيّة.**

	الافتراض (ج)	السياق (س)	اللزوم
1	بسرعة مذهلة أسقط الناس صفة الحوذيّ واستبدلوها بالشيخ (محمد الباردي، 2012، ص 178).	الشعوذة والوعي	انعدام الوعي الاجتماعيّ

2	كان قاموس شتائمها ثريّا ومتنوّعا إلى درجة أنّي عندما كبرت كنت أتعجّب من أين تأتي زوجة جدّي بكلّ هذه القذاعات (محمد الباردي، 2012، ص 107).	العنف اللفظيّ والتواصل	علاقات اجتماعيّة متوتّرة
3	لأنّ الحيّ لا يملكه إلّا من ملك أسراره (محمد الباردي، 2012، ص 199).	الجوسسة والفضول	السلطة عبر الجوسسة
4	عرفت أناسا كانوا عندي أولياء صالحين، وعرفت آخرين كانوا عندي شياطين كأنّهم ليسوا من أهل هذه الأرض (محمد الباردي، 2012، ص 316).	الناس صنفان: خيّرون وشرّيرون	الناس صنفان: خيّرون وشرّيرون
5	وسأكتشف في النهاية أن لا شيء يدوم إن لم يتحكّم فيه منطق المصلحة (محمد الباردي، 2012، ص 245).	للتواصل مآرب شتّى	المصلحة أساس التواصل

تصف الافتراضات الواردة في جدول الافتراضات الاجتماعيّة الواقع الاجتماعيّ الذي عاش فيه الكاتب. وتبيّن التصوّر الذي يحمله عن ذلك الواقع. ويعمد القارئ إلى الربط بين هذه الافتراضات وما ترسّخ في ذاكرته الموسوعيّة من تصوّرات تمثّل سياقا. فيصل إلى لزوم يبدو من خلاله المجتمع عديم الوعيّ، ومتوتّر العلاقات، ويحتكم أفراده إلى الجوسسة والمصالح الذاتيّة. ويزداد التوتّر عمقا بانقسامهم طائفتيْن: طائفة خيّرة وأخرى شريرة. ويواصل القارئ عمليّة الاستنباط مع الافتراضات السياسيّة. وسنذكر طرفا منها في الجدول الآتي:

*** الافتراضات السياسيّة:**

	الافتراض ج	السياق س	اللزوم
1	سأدرك أنّ ليس كلّ الذين يتحدّثون عن الوطن يخدمون الوطن (محمد الباردي، 2010، ص 46).	الأفعال تبين صدق الأقوال أو زيفها	نسبيّة الوطنيّة
2	لا أحد كان يثق في كلام العمدة الذي كان منتشيا. كان يقول ويعلم أصحابه أنّه كان يكذب (محمد الباردي، 2010، ص 82).	العمدة شخصيّة مناورة	تلاعب المسؤولين
3	يبدو مركز الولاية حيث تصدر القرارات دائما بناية غامضة (محمد الباردي، 2012، ص 153).	مؤسّسات الدولة بين الشفّافيّة والغموض	غموض كيفيّة اشتغال مؤسّسات الدولة

4	وأنا أدرك الآن أنّ السياسة في بلدي تقتل ملكة الإبداع وتحوّل الإنسان إلى كائن ماكر (محمد الباردي، 2010، ص 161).	وجوه العلاقة بين الإبداع والسياسة	الفساد السياسيّ
5	ولكنّ العمل النقابيّ في هذا البلد كان وجها من وجوه السياسة (محمد الباردي، 2012، ص 214).	العلاقة بين السياسة والعمل النقابيّ	التداخل بين السياسيّ والنقابيّ

لا شكّ في أنّ للقارئ رصيدا من المعلومات القديمة حول العمل السياسيّ مخزّنا في ذاكرته التصوّريّة. وسينطلق من الافتراضات التي ساقها الكاتب، ثمّ ينزّلها في سياق تلك المعلومات القديمة[26]. وسيترتّب على ذلك لزوم مفاده أنّ الإيمان بالوطنيّة نسبيّ بين أبناء الوطن الواحد، وأنّ المسؤولين لا يلتزمون الصدق، وأنّ مؤسّسات الدولة تشتغل اشتغالا غامضا، وأنّ السياسة قتلت الإبداع وضخّمت ذئبيّة الإنسان وشوّهت العمل النقابيّ.

ولن يقتصر القارئ أثناء عمليّة الاستيعاب الاستدلاليّ على الفهم فحسب، بل سيجد نفسه منساقا إلى ضرب من المعالجة الحجاجيّة لتلك الافتراضات. فكيف يكون ذلك؟

2.3 الاستيعاب الاستدلاليّ اقتناعا::

إنّ السامع لا يأتي إلى معالجة الافتراضات الجديدة خالي الذهن. فلديه نوع من المخزن المخصّص للذاكرة القصيرة المدى، ولديه معلومات تُحوّل إلى الذاكرة الموسوعيّة (Mémoire encyclopédique). فهو يملك افتراضات سابقة حول العالم وأشيائه. وله بيئته التصوّريّة (Conceptual ecology of ethos)[27]. ويُنتظر منه أن يتأثّر محيطه العرفانيّ بعد أن يخضع لعمليّة إظهار في الافتراضات الجديدة. ويتمّ التأثّر بعد أن يقوم بعمليّة استدلال استنباطيّ (Inférence déductive)، ويصل إلى اللزوم أو النتائج بنفسه. فيقتنع بالجديد منها أو يرسّخ افتراضاته السابقة أو يعدّلها أو يحذفها[28].

ويطمح القارئ من وراء معالجة الافتراضات الواردة في سيرة محمّد الباردي الذاتيّة إلى الحصول على مكافأة. وهي تنحصر في الوصول إلى معلومات ذات صلة. ويمثّل مفهوم الصلة أو المناسبة الضمان الذي يمكّن القارئ من الاستدلال على الافتراضات التي قصد محمّد الباردي إظهارها.

إنّ القارئ وهو يقرأ سيرة محمّد الباردي الذاتيّة يدرك أنّ محيطه العرفانيّ يختلف عن محيط الكاتب العرفانيّ. فلن يقتصر في عمليّة الاستيعاب على الوقوف على ما أراد الكاتب إظهاره فحسب، وإنّما سيستمرّ في مساره الاستيعابيّ[29]. وينطلق من الافتراضات، وهي لا تخلو من مقدّمات حجاجيّة مضمرة، أو ما اصطلح عليه لويس دي سوسير بـ"المقتضيات الخِطابيّة" (Présuppositions discursives)[30]. ثم يبذل جهدا استدلاليّا ليتوصّل إلى نتائج أخرى من جهة كونها لزوما سياقيّا. وسيخضع لعمليّة تأثير سياقيّ تختلف نتائجها من افتراض إلى آخر ومن قارئ إلى آخر. ففي الجدول الأوّل، أي جدول الافتراضات الذاتيّة المذكور أعلاه، يصل القارئ إلى تلك اللزومات بعد تسييق افتراضات الكاتب في المعلومات القديمة التي يحملها. وتؤثّر تلك اللزومات في القارئ على النحو الآتي:

	السياق (س)	اللزوم	التأثير السياقيّ
1	الكاتب نجح علميّا وثقافيّا	المطالعة إحدى سبل النجاح العلميّ والثقافيّ	ترسيخ معلومة قديمة
2	التألّم لرؤية الأقارب في وضع مهين	عزّة النفس تأبى القبول بهوان الأقارب	الترسيخ
3	التنجيم بين الرفض والتسليم	ردّ مقالة المنجّمين	ترسيخ معلومة قديمة أو تعديلها أو حذفها
4	الإصرار على تجاوز الفشل.	الصمود سبيل النجاح في الحياة	الترسيخ أو التعديل
5	التراجع انهزام أمام الخصوم	الثبات على المبدإ في مواجهة الخصوم	الترسيخ أو التعديل
6	الحياة نعيم وشقاء	الإحساس بنعيم الحياة رغم المحن	الترسيخ أو التعديل أو الحذف
7	مسألة الموت والحياة	الإقبال على الحياة وعدم الخوف من الموت.	الترسيخ أو التعديل أو الحذف

إنّ للتأثير السياقيّ من خلال هذا الجدول ثلاثة وجوه حجاجيّة: يتمثّل أوّلها في ترسيخ معلومة قديمة لدى القارئ. فقد يكون لدى القارئ في ذاكرته التصوّريّة ما يفيد أنّ للمطالعة فوائد شتّى. وعندما يعلم أنّ الكاتب معدود في الطبقة العليا من العلم والإبداع بفضل إقباله على المطالعة سترسّخ في ذاكرته تلك المعلومة القديمة، وتتعزّز بحجّة جديدة تؤكّد صحّتها. وقد يكون في ذاكرة القارئ التصوّريّة ما يفيد أنّ هوان الأقارب يجرح الكبرياء. وعندما يعلم أنّ كبرياء الكاتب قد جُرح لمّا شاهد جدّه الأعمى يستجدي في الأسواق بعض أقاربه فإنّ معلومة القارئ القديمة ستزداد رسوخا في ذاكرته التصوّريّة.

ويتّصل الوجه الحجاجيّ الثاني بالتعديل. فقد يكون لدى القارئ معلومات قديمة مفادها عدم التسليم بمقالات المنجّمين كلّيّا وعدم ردّها كليّا، وأنّ الصمود ليس من سبل النجاح في الحياة، وأنّ الثبات على المبدأ قد لا يجدي نفعا في مواجهة الخصوم. فإنّه بعد الوصول إلى اللزومات الثالث والرابع والخامس في الجدول المذكور أعلاه سيفارق تردّده ويحسم أمره ويعدّل موقفه ويقتنع بضرورة ردّ مقالات جميع المنجّمين، وسيؤمن أنّ الصمود سبيل النجاح، وسيصدّق أنّ الثبات على المبدأ ضروريّ في مواجهة الخصوم.

ويتمثّل الوجه الحجاجيّ الثالث في الحذف. فقد يكون للقارئ معلومات قديمة مخزّنة في ذاكرته التصوّريّة مفادها أنّ شقاء الحياة يحجب كلّ نعيمها، وأنّ الخوف من الموت يمنع الإنسان من الإقبال على الحياة، ولكنّه بعد أن يصل إلى تلك النتائج سيحذف من ذاكرته تلك المعلومات القديمة، ويسلّم بالمعلومات الجديدة. فيتغيّر محيطه العرفانيّ. وللتأثير السياقيّ وجه حجاجيّ آخر يتجلّى في الجدول الموالي المتعلّق بالافتراضات الاجتماعيّة.

	السياق (س)	اللزوم	التأثير السياقيّ
1	الشعوذة والوعي	انعدام الوعي الاجتماعيّ	الترسيخ
2	العنف اللفظيّ والتواصل	علاقات اجتماعيّة متوتّرة	التعديل
3	الجوسسة والفضول	السلطة عبر الجوسسة	معلومة جديدة
4	الناس صنفان: خيّرون وشرّيرون	الناس صنفان: خيّرون وشرّيرون	التعديل
5	للتواصل مآرب شتّى	المصلحة أساس التواصل	التعديل

يتّضح من خلال هذا الجدول وجه رابع من وجوه اشتغال التأثير السياقيّ حجاجيّا. فقد لا يكون في ذاكرة القارئ التصوّريّة معلومة قديمة مفادها أنّ الجوسسة سلاح فتّاك للسيطرة على الآخرين. وما يعزّز هذا الاحتمال أنّ محيط الكاتب الاجتماعيّ آخذ بالثقافة الإسلاميّة. ومن المقتضيات التداوليّة في الثقافة الإسلاميّة النهي عن الجوسسة في قوله تعالى: "ولا تجسّسوا"[31]. فتكون هذه النتيجة معلومة جديدة توسّع محيط القارئ العرفانيّ.

وإذا نظرنا إلى جميع أنواع التأثير السياقيّ المذكورة أعلاه، وسواء اشتغلت حجاجيّا عن طريق تقوية افتراضات القارئ السابقة أو حذفها أو تعديلها أو أضافت إليها معلومة جديدة فإنّها تجري إلى إحداث تغيير في عقل القارئ[32]. ويتّصل التغيير بدرجة نضج المجتمع وأصنافه وعلاقاته التواصليّة. ففي مستوى النضج ما زال المجتمع سجين الشعوذة والخرافة. ومن جهة الأصناف ينقسم الناس بين خيّرين وشرّرين. وعلى القارئ أن يلتفت لواقعه ليدرك أنّ من هم حوله كتل متحرّكة من الخير أو الشرّ. وكلّ قارئ يعتقد أنّ من حوله خيّرون فقط فقد وهم. ووهم على مقدار وهمه من يعتقد أنّ من حوله كلّهم شرّيرون. والأمر ذاته بالنسبة إلى العلاقات التواصليّة. فالقارئ الذي له افتراض سابق مفاده أنّ التواصل يقوم على أساس المصلحة فإنّ النتيجة المتوصّل إليها ستقوّي ذلك الافتراض. وإذا كان له افتراض آخر تقديره أنّ التواصل خلو من كلّ مصلحة فإنّ النتيجة المتوصّل إليها ستحذف ذلك الافتراض. وإذا كان القارئ متردّدا بين الأخذ بمفهوم المصلحة وتركه فإنّ النتيجة المتوصّل إليها ستعدّل له افتراضه ليقتنع أنّ المصلحة أساس التواصل. وعلى هذا النحو سيستوعب القارئ استدلاليّا جميع الافتراضات ذات البعد السياسيّ. ويكون التأثير السياقيّ على النحو الآتي:

	السياق س	اللزوم	التأثير السياقيّ
1	القول والفعل	نسبيّة الوطنيّة	التعديل
2	سلوك المسؤولين	المكر والنفاق	التعديل
3	المؤسّسات بين الشفّافيّة والغموض	غموض كيفيّة اشتغال مؤسّسات الدولة	الترسيخ
4	العلاقة بين الإبداع والسياسة	الفساد السياسيّ	التعديل
5	العلاقة بين السياسة والعمل النقابيّ	التعالق بين السياسة والعمل النقابيّ	التعديل

يشتغل التأثير السياقيّ حجاجيّا في هذا الجدول من خلال التعديل والترسيخ. فقد يكون للقارئ معلومات سابقة مفادها أنّ الوطنيّة تقترن عادة بالعمل من أجل الوطن، وأنّ المسؤول ثقة ثبت، وأنّ السياسة تعرقل الإبداع أحيانا، وأنّ العمل النقابيّ مستقلّ عن العمل السياسيّ. ولكنّه بعد أن يصل إلى هذه النتائج سيعدّل معلوماته القديمة في ضوء المعلومات الجديدة. ويسلّم بأنّ الوطنيّة لا تقترن بالعمل من أجل الوطن عند بعض الناس، وأنّ المسؤول ماكر، وأنّ السياسة توظّف كلّ شكل من أشكال الإبداع، وأنّ العمل النقابيّ صنو العمل السياسيّ. وأمّا الترسيخ فيتجلّى في وجود فكرة سابقة لدى القارئ مفادها أنّ مؤسّسات الدولة لا تشتغل اشتغالا شفّافا على النحو المطلوب. وعندما يصل القارئ إلى اللزوم القاضي بغموض كيفيّة اشتغال مؤسّسات الدولة فإنّ معلومته القديمة ستترسّخ، ويزداد بها اقتناعا.

وتجري هذه المعلومات الجديدة جميعها إلى إحداث تغيير في محيط القارئ العرفانيّ في المستوى السياسيّ. فيدرك أو يزداد إدراكا أن ليس كلّ مواطن وطنيّا، وليس كلّ مسؤول صادقا، وأنّ مؤسّسات الدولة غامضة، وأنّ السياسة حريصة على إفساد الإبداع والحدّ من استقلاليّة العمل النقابيّ. فيقتنع أو يزداد اقتناعا بأنّ الواقع السياسيّ في بلاده يشكو ألوانا مختلفة من العلل. وعلى الإنسان أن يعمل على معالجتها.

ولن يكتفي القارئ بإدراك ما أراد له الكاتب أن يدركه، وإنّما سيجد نفسه مدعوّا تلقائيّا إلى اختبار الأفكار والمبادئ والقيم التي يؤمن بها وتمثّل بدورها جزءا من محيطه العرفانيّ. ويُنجز الاختبار بإجراء مقارنة مع محيط الكاتب العرفانيّ[33]. وقد تؤول المقارنة إلى رتق الفتق في بنية القارئ الذهنية وبنيته الوجدانيّة، ووعيه الاجتماعيّ والسياسيّ. ويترتّب على كلّ ذلك تحسين تمثيله للعالم وأشيائه[34].

ولن يقف القارئ عند حدود الإذعان لما يُلقى إليه من أطروحات أو يزيد في درجة إذعانه فحسب، وإنّما سيتجلى كلّ ما أذعن له واقتنع به في سلوكه. والضمان لتحويل الاقتناع إلى سلوك ضمانان: يتمثّل أوّلهما في أنّ القارئ قد وصل إلى تلك النتائج بنفسه عن طريق عمليّة استيعاب استدلاليّ. فيكون أشدّ اقتناعا بها لأنّه يعدّها نتائجه الشخصيّة، وسيظهرها إظهارا مباشرا في سلوكه. وأمّا الضمان الثاني فيتّصل بالكاتب. فهو يتنزّل في إيتوسه السابق للخطاب (Ethos prédiscursif

أو في إيتوسه الخطابيّ[35] منزلة النموذج والقدوة، أو هو على الأقلّ يتنزّل تلك المنزلة بالقوّة. ولا شكّ في أنّ القارئ سيجعله معيارا يحتكم إليه في أي تغيير يدخله على محيطه العرفانيّ. فيحسّن بنيتيه الذهنيّة والنفسيّة، ويعمل على تحسين واقعه الاجتماعيّ والسياسيّ بمعالجة جميع مواطن الخلل.

4. خاتمة:

يتّضح ممّا تقدّم أنّ الحجاج العرفانيّ قائم على نشاطيْن أو عمليّتيْن ذهنيّتين يعالج بهما الذهن الخطاب: تتعلّق أولاهما بالمتكلّم حيث ينجز عمليّة إظهار استدلاليّ يُصدر بمقتضاها منبّها يجعل مجموعة من الوقائع والافتراضات ظاهرة بالنسبة إلى السامع. وتجري هذه العمليّة لمستقرّ لها مفاده تغيير محيط السامع العرفانيّ. وقد نقل محمّد الباردي في سيرته الذاتيّة محيطه العرفانيّ. وأقامها على سلسلة من الافتراضات كشفت بنيتيْه الذهنيّة والوجدانيّة، وصوّرت واقعه الاجتماعيّ والسياسيّ. وضغط على ذهن القارئ عن طريق المنبّهات الإظهاريّة لتوجيهه استدلاليّا إلى الافتراض الأنسب، فغيّر محيطه العرفانيّ.

وتتمثّل العمليّة الثانية في الاستيعاب الاستدلاليّ، وهي نشاط ذهنيّ يُنجزه السامع، يفهم في مرحلته الأولى الحمولة الإخباريّة فيما أظهره له المتكلّم، ثمّ يُجري عمليّة تسييق ذهنيّة تحدّد طبيعة التغيير العرفانيّ الذي سيخضع له. وقد انهمك قارئ سيرة الباردي الذاتيّة في عمليّة استيعاب استدلاليّ. فأنجز عمليّة تسييق نزّل بمقتضاها المعلومات الجديدة المستفادة من سيرة الباردي الذاتيّة في سياق معلوماته القديمة. وخضع لتأثير سياقيّ اختلفت وجوهه بين الترسيخ والتعديل والحذف والإضافة. وأوصله إلى تحسين تمثيله للعالم وأشيائه من حوله. وعمليّة الاستيعاب عمليّة ذهنيّة وذاتيّة تلتقي مع أبرز غايات الحجاج المتمثّلة في الاقتناع. فيكون السامع أشدّ اقتناعا لأنّه يعدّ النتائج التي توصّل إليها نتائجه الشخصيّة.

ورغم النقد[36] الذي واجهته نظريّة المناسبة[37] فإنّها مثّلت إلى جانب البلاغة العرفانيّة وعلم الأدب العرفانيّ[38]، وما صار يُعرف بالنقد الأدبيّ العصبيّ (Neurocritique littéraire)[39] معينا استمدّ منه الحجاج العرفانيّ أبرز مقولاته. وقد أتاح لنا من الأدوات المنهجيّة ما ساعدنا في مقاربة السيرة الذاتيّة مقاربة أوصلتنا إلى المختلف من النتائج. ولعلّ هذا التأسيس للحجاج العرفانيّ يعزّز ما "تشهده الدراسات العرفانيّة من فتوحات"[40]، ولعلّ الدراسات اللاحقة تغني مسلك البحث في الحجاج العرفانيّ وتوسّعه.

5. . قائمة المصدرين والمراجع:

1.6 المصدران:

الباردي، محمّد،

-(2010)، حنّة سيرة ذاتيّة روائيّة، الكتاب الأوّل، ط 1، مركز الرواية العربيّة للنشر والتوزيع، قابس .

- (2012)، تقرير إلى عزيز أو سيرة مدينة سيرة ذاتيّة روائيّة، الكتاب الثاني، ضحى للنشر والتوزيع، قابس.

2.6 المراجع:

* المراجع العربيّة:

الخبو، محمّد، (2012)، نظر في نظر في القصص مداخل إلى سرديّات استدلاليّة، مكتبة علاء الدين، ط 1، صفاقس.

* المراجع المترجمة:

جاك موشلير وآن ريبول، (2010)، القاموس الموسوعيّ للتداوليّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عزّ الدين المجدوب، دار سيناترا، تونس.

سبيبر (دان) وويلسون (ديدري)، نظريّة الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2016.

ستوكويل (بيتر)، عوالم الخطاب والفضاءات الذهنيّة، ترجمة بهاء الدين محمّد مزيد، مجلّة فصول، المجلّد 4/25، العدد 100، 2017، ص-ص 106-122.

* المراجع الأجنبيّة:

Amossy, Ruth, (2013), L'argumentation dans le discours, Armand Colin, Paris.

Andler, Daniel, (2004),

- (2004), Logique raisonnement et psychologie, in Introduction aux sciences cognitives, Nouvelle Edition Augmentée, Gallimard, Paris.

- (2004), Conclusion, in Introduction aux sciences cognitives, Nouvelle Edition Augmentée, Gallimard, Paris.

Anscombre, Jean-Claude, et Ducrot, Oswald, (1997), L'argumentation dans la langue, Éditions Mardaga.

Aristote, (1991), Rhétorique, trad. C-E Ruelle, le livre de poche, Librairie Générale Française, Paris.

Bossuyt, Alain, (2014), Comment on se comprend questions de communication linguistique, Academia-L'Harmattan.

Browse, Sam, (2018), Cognitive Rhetoric The cognitive poetics of political discourse, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam / Philadelphia.

De Saussure, Louis, (2016), Présuppositions discursives, assertion d'arrière-plan et persuasion, in Rhétorique et cognition, Peter Lang SA, Editions scientifiques internationales, Berne.

Fodor, Jerry, (1983), The Modularity of Mind, Cambridge, MA: MIT Press.

Grize, Jean-Blaise, (1982), De la logique à l'argumentation, librairie Genève et Paris Droz.

Gusdorf, Georges, (1991), Auto-Bio-Graphie Lignes de vie 2, Editions Odile Jacob, Paris.

Herman, Thierry, et Oswald, Steve, (2016), Introduction, in Rhétorique et cognition Perspectives théoriques et stratégies persuasives, Peter Lang S A, Berne.

Lavocat, Françoise, (2016), Interprétation littéraire et sciences cognitives, Hermann, Paris.

Livet, Puerre, (2004), Limitations cognitives et communication collective, in Introduction aux sciences cognitives, Nouvelle Edition Augmentée, Gallimard, Paris.

Perelman, Chaim, et Olbrechts-Tyteca, Lucie, (2008), Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique, 6ème édition, Éditions de l'université de Bruxelles, Bruxelles.

Searle, John Rogers, (1996), Les actes de langage, Essai de philosophie du langage, Hermann, Paris.

Sperber, Dan, et Wilson, Deirdre, (1989), La pertinence Communication et Cognition, Minuit, Paris.

Sperber, Dan, et Wilson, Deirdre, (1996), Relevance Communication and Cognition, Blackwell Publishers Ltd, Oxford .

Stockwell, Peter, (2017), Cognitive stylistics, Fusul, Vol 25/4, No 100 .

Troscianko, Emily T. and Burke, Michael, (2017), A window on to landscape of cognitive literary science, in Cognitive literary science Dialogues between literature and cognition, Oxford University Press .

Vernay, Jean-François, (2019), La séduction de la fiction, Hermann, Paris .

Wilson, Deudre, et Sperber, Dan (2004), Ressemblance et communication, in Introduction aux sciences cognitives, Nouvelle Edition Augmentée, Gallimard, Paris

•مواقع الانترنيت

* Friestad, Marian and Wright, Peter, (1994), The Persuasion Knowledge Model: How People Cope with Persuasion Attempts, in https://academic.oup.com/jcr/article/21/1/1/1853712.

* Houessou (Dorgelès), Les fonctions argumentatives des récits de vie : un exemple de construction ethotique chez Laurent Gbagbo, in journals.openedition.org/narratologie/7227.

* Vrenay, Jean-François, (2017), Dans le laboratoire des études littéraires cognitives, in https://www.fabula.org/acta/document10619.php.

6. الهوامش:

[1] Aristote, Rhétorique.

[2] Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique, p. 5.

[3] Ruth Amossy, L'argumentation dans le discours.

[4] John Rogers Searle, Les actes de langage, Essai de philosophie du langage.

[5] Jean-Blaise Grize, De la logique à l'argumentation.

[6] Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue.

[7] Jerry Fodor, The Modularity of Mind.

[8] وجدنا تباينا كبيرا في ترجمة Environnement cognitif. فقد تُرجم في القاموس الموسوعيّ للتداوليّة بـ"المحيط العرفانيّ". يُنظر:
جاك موشلير وآن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتداوليّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عزّ الدين المجدوب، دار سيناترا، تونس، 2010، ص 145.
وأجرى محمّد الخبو الترجمة ذاتها. يُنظر:
محمّد الخبو، نظر في نظر في القصص مداخل إلى سرديّات استدلاليّة، ص 109.
وترجم هشام إبراهيم عبد الله الخليفة المصطلح بـ"بيئة إدراكيّة معرفيّة".
دان سبيبر وديدري ولسون، نظريّة الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة ص 80.

[9] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 66.

[10] الافتراض هو مجموعة مركّبة من المفاهيم والتصوّرات. وهو يظهر أوّلا عنوانا في الذاكرة يمكن أن نخزّن تحته أنماطا مختلفة من المعلومات أو نستدعيها. وتقع المعلومات التي يجوز خزنها في الذاكرة تحت عنوان تصوّر أو مفهوم معيّن في ثلاثة أنماط متميّزة، هي المنطقيّة والموسوعيّة والمعجميّة.
Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 135.

[11] Marian Friestad and Peter Wright, The Persuasion Knowledge Model: How People Cope with Persuasion Attempts, in https://academic.oup.com/jcr/article/21/1/1/1853712.

[12] Jean-François Vernay, La séduction de la fiction, p. 15.

[13] استندنا في ترجمة بعض المصطلحات إلى ما ورد في ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة.
دان سبيبر وديدري ولسون، نظريّة الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة.

[14] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 100.

[15] طوّر ألان بوسيي مفهوم الصدق. ورأى أنّنا ننطلق في بناء تأويل للملفوظ من مبدأ كونه صادقا. وللتثبّت من صدق ما يُقال لنا نقارن تأويلاتنا بما نعلمه سابقا انطلاقا من مجال معرفيّ وسياق. ويستوجب مجال التثبّت تنزيل الملفوظ في سياقه. ويتكوّن مجال التثبّت من معتقداتنا حول موضوع التثبّت وليس حقيقة موضوع التثبّت في ذاته. فجملة الشمس تدور حول الأرض، صادقة قبل كوبرنيك وكاذبة بعده. ولا يلزم مجال التثبّت العالم الواقعيّ فحسب وإنّما يخصّ كذلك العالم التخييليّ. فجملة هاملت قتل بولنيوس صادقة في مجال التثبّت الذي بنته المسرحيّة. فمجال التثبّت حقيقة مجرّدة وبناء ذهنيّ خالص يُبنى باستمرار أثناء التبادلات شأنه شأن السياق.

Alain Bossuyt, Comment on se comprend questions de communication linguistique, pp. 179-180.

[16] يقول دانيال أندلير: "الانفعالات هي ربّان حياتنا الاجتماعيّة".

Daniel Andler, Conclusion, in Introduction aux sciences cognitives, Nouvelle Edition Augmentée, p. 648.

[17] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 99.

[18] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 76.

[19] يرى تياري هرمان وستيف أوزوالد أنّ فنّ التخاطب في وضعيّة محسوسة وعلى أمل إذعان السامع لأطروحة يقتضي كفاءة إدراكيّة عالية نصطلح عليها اليوم بالميتا-تمثيل. فكيف نبني تمثيلا؟ وما الأمر القابل لإثارة الشفقة أو الإزعاج؟ وكيف أرتّب حججي كي لا أفاجئ الحكم. وذهب الباحثان إلى أنّ الرهان الأكبر منذ عهد كوراكس وتيسياس هو السعيّ إلى السيطرة على حوافز الحكم العرفانيّة.

Thierry Herman et Steve Oswald, Introduction, p. 1.

[20] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, pp. 119-122.

[21] Ibid, pp. 166-167.

[22] Ibid, pp. 160-180.

[23] Ibid, pp. 184-185.

[24] يقول سبيربر وويلسون: "لا توجد طريقة للتحكّم الدقيق بالسياق الذي سيكون في ذهن شخص معيّن في لحظة معيّنة. إنّ الطلب من الناس أن يحدّدوا أنفسهم بالسياقات الواضحة المركّبة بشكل مصطنع، هو شيء مخالف للإجراءات الطبيعيّة لتكوين السياق، إلى درجة تجعل قيمة الحدس الناتج مشكوكا فيها".

دان سبيبر وديدري ولسون، نظريّة الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص 213.

[25] Louis De Saussure, Présuppositions discursives, assertion d'arrière-plan et persuasion, p. 279.

[26] تمثّل هذه العمليّة عند دانيال أندلور أسس الاستدلال العرفانيّة.

Daniel Andler, Logique raisonnement et psychologie, p. 354.

[27] Sam Browse, Cognitive Rhetoric The cognitive poetics of political discourse, p. 59.

[28] Dan Sperber et Deirdre Wilson, La pertinence Communication et Cognition, p. 168.

[29] يرى ويلسون وسبيربر أنّ تأويل كلّ ملفوظ دون استثناء يستثمر علاقة مشابهة بين الملفوظ والفكرة.

Deudre Wilson et Dan Sperber, Ressemblance et communication, p. 223.

[30] Louis de Saussure, Présuppositions discursives, assertion d'arrière-plan et persuasion, p. 282.

[31] سورة الحجرات، الآية 12.

[32] يقول جورج قوسدورف: "لست أنا من يتكلّم عندما أتكلّم، وإنّما يتكلّم واقع عبر- شخصيّ، ينطق من خلال ذاتيّ".

Georges Gusdorf, Auto-Bio-Graphie Lignes de vie 2, p. 287.

[33] يقول بيتر ستوكويل: "يكثر أن تستند النصوص الأدبيّة في إنتاج دلالتها إلى المسافة بين ما تعرف الشخصيّة الروائيّة، وبين ما يتاح من معرفة أوسع للمتلقّي، وتبقى على المتلقّي مهمّة تتبّع هذين المستويْن من المعرفة والمقارنة بينهما".

بيتر ستوكويل، عوالم الخطاب والفضاءات الذهنيّة، ص 243.

[34] يقول جورج قوسدورف: "يتضمّن مشروع السيرة الذاتيّة بحثا عن معنى للحياة. وليس ذلك في ضوء ضوابط خارجيّة يفرضها المجتمع وإنّما في ضوء علاقة الذات بالذات التي تلتمس اختبار الوعي".

Georges Gusdorf, Auto-Bio-Graphie Lignes de vie 2, p. 393.

[35] يرى دورجلاس هويسو أنّ قصص الذات أبنية حاملة للحجاج. فهي تسهم في إبراز صورة للمتكلّم تحسّن من إذعان السامع للأطروحات التي تلقى إليه.

Dorgelès Houessou, Les fonctions argumentatives des récits de vie : un exemple de construction ethotique chez Laurent Gbagbo, in journals.openedition.org/narratologie/7227. (visité le 05/01/2018, à 23h).

[36] يرى ألان بوسي أنّ مبدأ المناسبة لا يبيّن كيف يُبنى التأويل. ويقترح إعادة صياغة حكمة الجهة لتكون مبدأ للتأويل.

Alain Bossuyt, Comment on se comprend questions de communication linguistique, p. 179.

[37] Puerre Livet, Limitations cognitives et communication collective, pp. 543-567.

[38] صاغ تروسيانكو وبورك مصطلح علم الأدب العرفانيّ سنة 2013.

Emily T. Troscianko and Michael Burke, A window on to landscape of cognitive literary science, p. 4.

[39] Jean-François Vrenay, Dans le laboratoire des études littéraires cognitives, in https://www.fabula.org/acta/document10619.php.

[40] Françoise Lavocat, Interprétation littéraire et sciences cognitives, p. 5.